٤٢ يعجب الرب من عبده

عن على بن ربيعة قال :

رأيتُ علياً أُتِيَ بدابة ليركبَها ، فلما وضع رِجْلَه في الرِّكَابِ قال : « بسْم اللهِ . فَلَما استوى عليها قال : الحمدُ للهِ ، سُبْحان الذي سَخَّر لنَا هَذَا ومَا كُنَّا له مُقرنين ، وإنَّا إلي ربِّنا لمنقلبُونَ . ثُمَّ حَمد اللهَ ثَلاثاً وَكبَّرَ ثَلاثاً . ثُمَّ قالَ : سُبْحانكَ، لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ ، قَدْ ظلمتُ نفسي فاغْفِرْ لى.

ثم ضحك فقُلْتُ : ضحكتَ يا أميرَ المؤمنين ؟

قال : رأيتُ رسولَ الله ﷺ فعل مثْلَ ما فعلتُ ثم ضحك ، فقلتُ : مِمَّ ضحكْتَ يَا رسُولَ اللهِ ؟

قال : يَعْجَبُ الربُّ من عبْدِه إذَا قَال : ربِّ اغفِر لِي وَيقُولُ : « علِمَ عبْدي أنَّه لاَ يَغفِرُ الذنُوبَ غيْري»(١).

يقول الحق سبحانه تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

فهذه أنعام نستخدمها للتنقُّل أو للزينة ، ولا نأكل لحومها ، فهى للركوب

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٠٢) ، والترمذى فى سننه (٣٤٤٦) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٩٧) ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

والمنفعة مع الزينة ، ذلك أن الناس تتزيَّن بما تركب ، تماماً كما يفخر أبناء عصرنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة.

ونَسَق الآية يدلُّ على تفاوت الناس فى المراتب ، فكُلُّ مرتبة من الناس لها مَا يناسبها لتركبه ، فالخيل للسادة والفرسان والأغنياء ، ومَنْ هم أقلّ ما يركبون البغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البغل ، فيمكنه أن يشترى لنفسه حماراً.

وقد يملك إنسان الثلاثة ركائب ، وقد يملك آخر اثنتين منها ، وقد يملك ثالثٌ ركوبةً واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أنْ يستأجر ، ولو ركوبة من أىِّ نوع .

وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً ، بل تأتى من جنسين مختلفين ، وينبهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المطاف ، بل هناك ما هو أكثر ، فقال تبارك وتعالى : ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿٨﴾﴾ {النحل}

وقد جعل الحق سبحانه البُرَاق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المعجزات قد حدثتْ لأنبياء فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثيرَ من عربات تجرُّها الجياد إلى سيارات وقطارات وطائرات.

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخيل ويُربِّيها ويُروِّضها ويُجريها لجمال منظرها ، وإذا كانت تلك الوسائل من

المواصلات التى كانت تحمل عنّا الأثقال ، وتلك المخترعات التى هدانا الله إياها ، فما بالنا بالمواصلات فى الآخرة ؟

لا بُدَّ أن هناك وسائلَ تناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاع غير موجود فى الدنيا.

فلو أن القرآن ذكر الخيل والبغال والحمير فقط من وسائل المواصلات ولم يَقُلْ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[النحل] ثم ظهرت وسائل مواصلات غير الخَيْل والبغال والحمير مثل العربة الحنطور ، ثم السيارة ، ثم الطائرة والصاروخ ..إلخ.

لو لم يَقُلْ ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[النحل] لتشكَّكَ الناس عند ظهور وسائل مواصلات جديدة لم تكُنْ معروفة عند نزول القرآن الكريم ، ولكن الحق سبحانه الذى يعلم ما سيحدث فى الكون حتى قيام الساعة ذكر ذلك فى كتابه قبل أنْ توجد أيٌّ من هذه الأشياء.

وقال الحق سبحانه : ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف]

والفُلْك هى السفن والمراكب فى البحار والأنهار ، والأنعام التى نركبها كالخيل والحمير والجمال ، كلما نـ ـكبها وتحمل أثقالنا إلى مكان لا يمكن أنْ نصله إلا بِشقِّ الأنفس.

قال الحق سبحانه و ... ـن أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴿٧﴾﴾ [النحل]

obeikan.com

ويقول فى آية آخرى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴿١٤٢﴾﴾ {الأنعام}

والحَمُولة هى التى تحمل ، والذى تحمله فوق ظهرها يسمى «حُمُولة» ؛ ولذلك نقول عن السيارة التى تنقل «حمولة كذا طن» والإبل نحمل عليها الرحال وكل متطلباتنا.

فهى تعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنَّا هذه المشقات ، وتُبلغنا غاياتنا بدون تعب ، فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية ، وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل.

وقد صنع الإنسان هذه الاختراعات ، فصارت عندنا السيارات الكبيرة التى تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تُحدثه من عوادم تُسبِّب فساد الهواء ، وتُلوّثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التى تفيد فى خصوبة الأرض.

إذن : فصناعة السيارات إنْ لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما، فهى اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حَمْل البضائع ونتخلّص مما تُسبِّبه من ضرر ، وهكذا نعرف أن الحكمة هى : وَضْع الشىء فى موضعه المفيد فائدةً دائمة لا يأتى من بعدها ضرر.

ومن نعمة الله سبحانه أنْ خلق لك هذه الأنعام لتركبها فى سفرك بعد أنْ كنت تمشى على رِجْلَيْك وتحمل الأثقال ، أصبحت هذه الأنعام تحملك وتحمل أثقالك ، فكان يجب أن تشكر الله على هذه النعمة.

والأنعام خلق الله لها أربعة قوائم ، حتى تكون ثابتة ، وكذلك السفن

تحتاج إلى أربعة أشياء: السفينة نفسها ، والبحر ، والهواء الذى يسيرها ، والطاقة التى تُحركها.

فأنت ترى هذه النعم كلها عندما تركب السفينة ، فكان عليك أنْ تذكر نعمة الله وتشكره عليها ، وحين نذكر نعمة الله علينا نُجيبه بقولنا : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف]

النبى ﷺ علَّمنا أن نقول هذا عندما نركب أيَّة دابة تسير على الأرض ، أو سفينة تسير فى البحر ، كما علَّمنا الحق سبحانه أنْ نذكره عند مباشرة أىِّ عمل جديد.

ولذلك ؛ علَّمنا شيئاً آخر بالنسبة لركوب السفن ، وهو أن نقول :﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا(٤١)﴾ [هود]

فجريانها إنما يتم بمشيئة الله تعالى وأنهم يركبون فيها باسمه سبحانه ، ولذلك يُقال «كل شىء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر(١)»(٢)؛ لأنك حين تُقبل على فعل شىء ، فالأفعال أو الأحداث تحتاج إلى طاقات متعددة ، فإنْ كان الفعل عضلياً فهو يحتاج لقوة ، وإنْ كان الفعل عقلياً فهو يحتاج لفكر ورَوِيّة وأَنَاة ، وإنْ كان فِعْلاً فيه مواجهة لأهل الجاه فهو يحتاج إلى شجاعة ، وإنْ كان من أجل تصفية نفوس فهو يحتاج إلى الحِلْم.

إذن : فاحتياجات الأحداث كثيرة ومختلفة ، ومن أجل أن تحصل على

(١) البتر : استئصال الشىء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر . والبتر أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الخير [لسان العرب ـ مادة : بتر، القاموس القويم ١/ ٥٤].

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : «كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عزوجل فهو أبتر ـ أو قال: ـ أقطع».

القوة ، فقد تقول «باسم الله القوى القادر» ولكى تحصل على عِلْم تقول «باسم العليم» ، وتريد الغِنى فتقول «باسم الغنىّ».

وحين تحتاج إلى الحِلْم تقول «باسم الحليم» ، وعندما تحتاج إلى الشجاعة تقول «باسم القهار».

وقد يحتاج الفعل الواحد لأشياء كثيرة ، والذى يُغْنى عن كل ذلك أنْ تنادى ربك وتتبَرّك باسم واجد الوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ففيه تنطوى كُلُّ صفات الكمال والجلال.

وإياك أنْ تتهيَّب أو تستحى ، بل ادخل على كُلِّ أمر باسم الله ، حتى لو كنتَ عاصياً ؛ لأن الحق سبحانه رحمن رحيم.

وهناك فَرْق بين «بسم الله» الذى نستعين به على ما لا قدرةَ لنا عليه ؛ لأن الله هو الذى سخَّر كُلَّ ما فى هذا الكون وجعله يخدمنا ، وبين «الحمد لله» فإنَّ لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا.

والتسبيح والتحميد والتكبير عند الركوب هو أمر وجَّهنا رسول الله ﷺ له ؛ لنقوم لله سبحانه بحقِّ الشُّكْر والثناء عليه سبحانه ، فلا نكفر نعمته علينا ، ولا نجحد فضله أنْ سخَّر لنا هذه الأنعام والدواب ، ومَا لا نعلمه من وسائل انتقال يمُنُّ الله علينا بها بتقدُّم العلم وحركة الابتكار والاختراع.

فنقول «الحمد لله ، سبحان الذى سخر لنا هذا».

«سبحان الله» تنزيه لذاته سبحانه أنْ يكون له شريك ، لا فى الذات ، ولا فى الأفعال ، ولا فى الصفات ، والحمد لله كذلك ، وبعد ذلك جاء العطاء من الذات فقُلْنا : الحمد لله ، فسبحان الله تنزيه ، والحمد لله شُكر على العطاء.

والحَمْد يشترك معه فى المعنى العام : الثناء والشكر والمدح ، إلا أن هذه الألفاظ وإنْ تقاربتْ فى المعنى العام ، فلكُلٍّ منها معناه الخاص ، وكل هذه الألفاظ فيها ثناء ، إلا أن الشكر يكون من مُنْعَم عليه بنعمة خاصة به ، كأنْ يُسدى لك إنسانٌ جميلاً لك وحدك ، فتشكره عليه.

أما الحمد فيكون على نعمة عامة لك ولغيرك ، فَرُقعة الحمد أوسع من رُقْعة الشكر ، أما المدح فقد تمدح مَا لا يعطيك شيئاً ، كأنْ تمدح مثلاً الشيء الجميل لمجرد أنه أعجبك.

فقول «الحمد لله» بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكلِّ شيء ، حتى إن حمدك لأىّ إنسان قدَّم لك جميلاً فهو ـ إذا سَلْسَلْتَه ـ حَمْدٌ لله تعالى الذى أعان هذا الإنسان على أنْ يُحسن إليك.

فالجميل جاء من حركته ، وحركته موهوبة له من خالقه ، والنعمة التى أمدَّك بها موهوبة من خالقه تعالى ، وهكذا إذا سلسلتَ الحمد لأىٍّ إنسان فى الدنيا تجده يصل إلى المنعِم الأول سبحانه وتعالى .

وكلمة «الحمد لله» هذه هى الصيغة التى علّمنا الله أنْ نحمده بها، وإلاّ فلو ترك لنا حرية التعبير عن الحمد ولم يُحدِّد لنا صيغة نحمده ونشكره بها لاختلفَ الخَلْق فى الحمد حَسْب قدراتهم وتمكّنهم من الأداء ، وحَسْب قدرتهم على استيعاب النعم ، ولوجدنا البليغ صاحب القدرة الأدائية أفصح من العىِّ والأمىّ ، فتحمّل الله عنَّا جميعاً هذه الصيغة ، وجعلها متساوية للجميع ، الكلُّ يقولها «الحمد لله» ، البليغ يقولها ، والعَىُّ يقولها ، والأمىّ يقولها.

لذلك يقول ﷺ وهو يحمد الله ويُثنى عليه «سبحانك ، لا نُحصِى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» (١).

فإنْ أردنا أنْ نُحصى الثناء عليك فلن نستطيع ؛ لأن الثناء عليك لا يعرف مداه إلا أنت ، ولا يُحصيه غيرك ، ولا نملك إلا أنْ نقول ما علَّمتنا من حمدك : الحمد لله.

إذن : فاستواءُ الناس جميعاً فى «الحمد لله» نعمة كبرى فى ذاتها تستحق الحمد ، فنقول : الحمد لله على ما علَّمنا من الحمد لله بالحمد لله ، وهكذا ، لو تتبعتَ الحمد لوجدته سلسلةً لا تنتهى ، حَمْد على حمد على حمد على حمد ، فيظلّ الله محموداً دائماً ، ويظلّ العبد حامداً إلى مَا لا نهاية.

وتسبيح الله تنزيهه تنزيهاً مُطلقاً ، أنْ يكونَ له شبيه أو مثيل فيما خلق، فلا ذاتٌ كذاته ، ولا صفاتٌ كصفاته ، ولا فى أفعاله ، فليس فى أفعال خَلْقه ما يُشبه أفعاله تعالى.

فإنْ قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتىٌّ فيه سبحانه.

فكلمة «سبحان» تنزيه وتعجُّب من قدرة الله.

ولو تأملنا كلمة «سبحان» نجدها فى الأشياء التى ضاقت فيها العقول ، وتحيَّرتْ فى إدراكها ، وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

---

(١)أخرج أحمد فى مسنده (٦/ ٥٨ ، ١٢٠) ، ومسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس]

فالأزواج أى : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر فى النبات، وفى الإنسان ، وقد فسَّر لنا العلم الحديث قوله ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] بما توصّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى.

ومنها قوله :﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم]

فمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحلُّ الظلام محلَّ الضياء ، أو الضياء محلّ الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أنْ يقولَ : سبحان الله.

ومنها قولنا :«سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» عند ركوب الدابة.

فهذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وحتى لا يغترّ الإنسان بالإمكانات التى أعطاها الله له عند ركوب هذه الأشياء المسخَّرة له ، ذكَّره الله بالرجوع ، فعلَّمه أن يقول فى تكملة الدعاء:

«وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون»

أىّ : لا تغترّ بأن أشياء حملتْك وأراحتْك ، واشكر الذى سخّرها لك ، واعلم أن عودتك ومرجعك إليه ، فربما غرقت السفينة ، أو مرضت الأنعام ، وعجزت عن السير .

وكلُّ شىء من وسائل الانتقال هذه جعل الله له آفة ، ففى السفن قال

تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس]

فلم يحمدوا الله على هذه النعمة ، ولكن فرحوا واغتروا ، فجاءها الريح العاصف ، وعند الخطر يتذكّر الإنسان ربّه.

وربنا هو الذى علَّم الإنسان صناعة السفن، فسيدنا نوح عندما أخذ يصنع السفينة كان الناس يسخرون منه ، وعلَّمه الله كيف يصنعها ، قال سبحانه و تعالى :﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴿٣٧﴾﴾ [هود]

فالفكرة الأولى لصناعة السفن منه سبحانه ، والأنعام من مخلوقاته ، والأنعام أقوى من الإنسان ، فالحمار أقوى ، والفرس أقوى ، والجمل أقوى ومع ذلك ذلَّلها الله لنا وسخَّرها.

ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى :﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس]

فلو أن الله لم يُذللها لنا ما استطعنا أنْ نقربها أو نستفيد منها ، ولذلك نقول : إن الولد الصغير كان يقود الجمل الضخم ، ويُمسك بزمامه ، والجمل يسير وراءه طائعاً مستسلماً ، وكذلك باقى الأنعام ، وهذا موجود فى الريف حتى اليوم.

بينما تجد أضعف شىء وهو البرغوث يُقلق منامك ويحرمك من الراحة ، ولا تستطيع أنْ تُمسكه ولا أنْ تنتقمَ منه ؛ لأنه غير مُسخَّر لك ، كذلك أصغر ثعبان يمكن أنْ يثير الفزع بين الناس ؛ لأنه غير مُسخَّر للإنسان .

فلا بُدَّ أنْ يتذكر الإنسان نعمة الله عليه فى أنه لا يقدر على الشىء ،

ولكن الله ذلَّله له وسخَّره لخدمته ، وإذا أردْنَا أنْ نُدرِّب هذه الحيوانات ونُروِّضها لأداء أغراض معينة تستجيب وتتعلّم.

ومعنى « وما كنا له مقرنين» أى : مُطيقين . أى : أننا لا نقدر عليه.

وإذا كنتَ قد قُلْت «باسم الله» قبل الركوب ، ثم حمدْتَ الله بعد أن استويتَ على ظهر الدابة راكباً ، ثم سبَّحْتَ الله تنزيهاً له وتعجباً من قدرة الحق سبحانه أنْ سخَّر لك هذا وهيَّأه لك ، فعليك أنْ تُكبِّر الله فتقول «الله أكبر».

فلا بُدَّ أن تكبِّر الله وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار ، فإنْ ناداك وأنت فى أىّ عمل فقُلْ : الله أكبر من عملى ، وإنْ ناداك وأنت فى حضرة عظيم ، فقُلْ الله أكبر من أىِّ عظيم ، كبِّر تكبيراً بأنْ تقدم أوامره ونواهيه على كُلِّ أمر ، وعلى كُلِّ نَهْى.

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أىِّ شىء ، فاجعل أمره ونَهْيه فوق كل شىء ، وكأن الحق سبحانه يُوجِّهنا أنْ نجعل توجهنا لله من بداية ما نضع أقدامنا على وسيلة انتقالنا ، بالبسملة والحمد والتسبيح والتكبير ، ثم توحيده والاعتراف والإقرار بأننا قد ظلمنا أنفسنا ، فلنطلب المغفرة من الله ؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله.

ولذلك يقول تعالى :﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ {النساء}

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق جعلهم أهل أغيار ؛ لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه سبحانه شرع التوبة للمذنب حمايةً للمجتمع من استشراء شرِّه ، فلو خرج كُلُّ مَنْ ارتكب ذنباً من

رحمة الله فسوف يعانى المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمةً مُستطيرة الشر على المجتمع.

إذن: فالتوبة من الله ، مشروعيةً وقبولاً ، إنما هى حماية للبشر من شراسة مَنْ يصنع أول ذنب ، وهكذا جاءت التوبة لتحمى الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة.

ولذلك يعجَب رَبُّ العزة سبحانه من عبده هذا الذى يعلم أن الله وحده هو الذى يغفر الذنوب ، ومع ذلك يُذنب ؛ ولذلك يقول رَبُّ العزة فى حديثه القدسى:

«علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

فمَنْ يظلم نفسه بالذنوب هو مَنْ نسى الله ، فالمذنب الذى يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه لا يكون اللهُ على باله ، لأنه لم يَرَ الله ، ولم يَرَ جزاءه وعقابه فى الآخرة ماثلاً أمامه ، ولو تصوَّر هذا لامتنع عن فِعْل الذنب.

فلا يجوز للإنسان أنْ يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة ؛ لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ {النساء}

هذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس :«فى سورة النساء ثمانى آيات خير لهذه الأمة مما طلعتْ عليه الشمس أو غربت»[1].

وهى خَيْر مِمَّا طلعتْ عليه الشمس ؛ لأنها تحمى من حُمْق الاختيار الذى

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٤٤٨) وعزاه لابن جرير من طريق صالح المرى عن قتادة عن ابن عباس قال :«ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت».

وُجِد في الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسان كان مُسيَّراً ومُكْرهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار.

فهذه الآيات طمأنتْ الإنسان على أنه إنْ حَمُقَ اختياره في شيء ، فالله يريد أنْ يُبصِّره ، والله يريد أنْ يتوب عليه ، والله يريد أنْ يُخفِّف عنه ، والله يريد إنِ اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويُكفِّرها.

ولكن بشرط أنْ لا يكونَ عندنا إصرار على الصغائر ، لماذا ؟ لأنك إنْ قدَّرْت ذلك فقدِّر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقُلْ : سأفعل الذنب ثم أستغفر، هذه لا تضمنها ، وأيضاً تكون كالمستهزىء بربِّه.